

الإسم واللقب: د. هرون نصيرة

الرتبة العلمية: محاضرة أ

المؤسسة الأصلية: المدرسة العليا للأساتذة آسيا جبار قسنطينة

"مفهوم التسامح" من فلاسفة الأنوار إلى ميثاق الأمم المتحدة

ملخص البحث باللغة العربية:

يعود تاريخ ميلاد التسامح في موطنه الاوروي إلى ما يقارب الثلاثة قرون ، لكنه اتخذ صيغته النهائية في نهاية القرن السابع عشر على يد فلاسفة التنوير امثال جون لوك و فولتير و بيير بايل ، وجان جاك روسو وغيرهم.....وقد ظهر مفهوم التسامح في الدول الغربية نتيجة الحاجة الملحة لاستقرا و أمن المجتمعات ، الغارقة في الحروب الاهلية حيث عاشت أوروبا سنين طويلة ، في صراع دموي مذهبي طائفي .

انتهت هذه الحروب مع ميلاد مبدأ التسامح الذي حلّ معضلة التعصب الديني و ملّم شتات أوروبا الممزقة وضمد جراحها و أوقف نزيفها المزمع كما أعطى تقدما باهرا للمجتمعات المدنية و حرر الانسان من الارهاب والخوف وأرسى قوانين أكثر إنسانية تضمنها ميثاق الأمم المتحدة فيما بعد ، وكل ذلك بفضل جهود أعلام فلاسفة الأنوار الذين ينحصر فيهم موضوع بحثنا وقد حددنا مشكلة بحثنا عموما حول مبدأ التسامح والتحوّلات التي عرفها معناه مع مرور الزمن و التي يمكنها أن تنحل إلى جملة من التساؤلات الجزئية وهي في حقيقتها تعبر عن الاشكالات المتضمنة فيها ومن هذه التساؤلات:

ما هو مفهوم التسامح عموما؟ وما هو مفهومه عند فلاسفة الأنوار خصوصا؟ وماهي التحولات التي عرفها معناه؟

من خلال بحثنا انتهينا عند جملة من النتائج التي نحاول من خلالها الاجابة على المشكلة المطروحة وهي كالتالي: مفهوم التسامح كان ديني المولد و قد حمل معنى تقبل الآخر المختلف في المذهب، لكن مع جون لوك أصبح التسامح يعني التعايش في سلام وحق العيش في سلام كما ارتبط بالحقوق المدنية ، مع بيير بايل ارتبط بمفهوم الرأي العام و الحق في التعددية والاختلاف في الرأي وحرية المعتقد ، ومع فولتير ارتبط بتعايش الأديان والحرية في المعتقد. جميعهم انشغل بسؤال التسامح في ذلك الزمن كما تنشغل به الكثير من الأعلام اليوم العربية منها والغربية

على حد سواء وقد أخذ التسامح صورته السياسية في ميثاق الأمم المتحدة أين ارتبط التسامح بالديمقراطية وأصبح مبدأ من مبادئ حقوق الانسان كما بيّنا في المتن.

الكلمات المفتاحية:

التسامح، التعدد، الاختلاف، التعايش، الحقوق المدنية، حقوق الانسان، حرية العقيدة، الديمقراطية، ميثاق الأمم المتحدة، التسامح مبدأ من مبادئ حقوق الانسان،

مقدمة البحث:

ظهر مفهوم التسامح في سياق الحروب الدينية التي عصفت بأوروبا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر وتعود أصول المفهوم ارهاصاته التاريخية إلى العصور الوسطى أين اشتعل فتيل التطرف الديني، الذي يتمظهر في العنف الديني والسياسي والاجرام الذي مارسه محاكم التفتيش آن ذاك، كانت الآثار الاجرامية عاملا رئيسيا في ارتفاع الأصوات المطالبة بالتسامح والتعايش ونبذ العنف والتطرف.

من هنا نستشف أن تاريخ ميلاد التسامح يعود في موطنه الاوروي إلى ما يقارب الثلاثة قرون، لكنه اتخذ صيغته النهائية في نهاية القرن السابع عشر على يد فلاسفة التنوير امثال جون لوك و فولتير و بايل ، وجان جاك روسو وغيرهم.. ظهر مفهوم التسامح في الدول الغربية نتيجة الحاجة الملحة لاستقرا وأمن المجتمعات، الغارقة في الحروب الاهلية حيث عاشت أوروبا سنين طويلة، في صراع دموي مذهبي طائفي أحرق الأخضر واليابس.

انتهت هذه الحروب الضروس بميلاد مبدأ التسامح الذي حلّ معضلة التعصب الديني والطائفية التي أغرقت أوروبا في مستنقع التخلف، و الجهل و الملم شتات أوروبا الممزقة وضمد جراحها و أوقف نزيفها المزمع كما أعطى تقدما باهرا للمجتمعات المدنية و حرر الانسان من الارهاب والخوف وأرسى قوانين أكثر إنسانية تضمنها ميثاق الأمم المتحدة فيما بعد ، وكل ذلك بفضل جهود أعلام فلسفة الأنوار الذين ينحصر فيهم موضوع بحثنا وقد حددنا مشكلة بحثنا عموما حول مبدأ التسامح والتحوّلات التي عرفها معناه مع مرور الزمن و التي يمكنها أن تنحل إلى جملة من التساؤلات الجزئية وهي في حقيقتها تعبر عن الاشكالات المتضمنة فيها ومن هذه التساؤلات: ما هو مفهوم التسامح عموما؟ وما هو مفهومه عند فلاسفة الأنوار خصوصا؟ وماهي التحولات التي عرفها معناه؟

أولا: ضبط مفهوم التسامح

أكدالانند ان مصطلح التسامح ديني المولد "ولدت كلمة التسامح في القرن السادس عشر ميلادي نتيجة الحروب الدينية بين الكاثوليك و البروتستانت فقد انتهى الأمر بأن تساهل الكاثوليك مع " البروتستانت" و العكس ثم

صار التسامح يرتجي اتجاه جميع الديانات و كل المعتقدات وفي آخر المطاف في القرن التاسع عشر شمل التسامح الفكر الحر¹، كما يعرفه أيضا بقوله: "هو طريقة تصرف شخص يتحمل دون اعتراض أذى مألوف يمس حقوقه الدقيقة بينما في إمكانه رد الأذى"² من خلال تعريف لالاند نلمس التحول الذي طرأ على مفهوم التسامح فمن معنى التساهل مع الآخر إلى الحرية.

أما جميل صليبا فيعرفه كما يلي: "التسامح هو أن تترك لكل انسان حرية التعبير عن آرائه وإن كانت مضادة لآرائك..... والتسامح هو أن يحترم المرء آراء غيره لاعتقاده أنها محاولة التعبير عن جانب من جوانب الحقيقة..... فليس تسامحا في ترك الناس وما هم عليه من عاداتهم واعتقاداتهم وآرائهم مما نجود به عليهم، وإنما هو واجب أخلاقي ناشئ عن احترام الشخصية الإنسانية"³ ومن معانيه أنه سلوك شخص يتحمل دون اعتراض أي هجوم على حقوقه في الوقت الذي يمكنه فيه تجنب هذه الاساءة. ويعني استعداد المرء لأن يترك الآخر حرية التعبير عن رأيه ولو مخالفا ولو خطأ"⁴. جميل صليبا يربط مفهوم التسامح بالأخلاق.

بالإضافة لمعنى التسامح الإيجابي يأخذ التسامح "معنى سلبي لأننا نتسامح مع الأشياء التي لا نستطيع أن نقف ضدها وهنا يظهر التسامح في موقف الضعف، يرتبط التسامح بالضعف حين نصف شخص بأنه متسامح يستشف من هذا الوصف شيء من الاحتقار نحوه وحين يقال عن شخص أن أفكاره متسامحة معناه أنه يغمض عينيه عما يريد قوله"⁵ وهذا المعنى للتسامح ليس موضوع بحثنا لأنه ظهر عند مولد المصطلح في نهاية الحروب الصليبية الطائفية، ما نسعى لتحليله في بحثنا هو فعالية مبدأ التسامح في الدّول الأوروبية ، لأن مفهوم التسامح عرف الكثير من التحوّلات والاستعمالات منذ ميلاده إلى غاية أن أصبح مبدأ من مبادئ الأمم المتحدة كما سيتبين.

و للعلم فقد كان مرسوم نانت الشهير الذي صدر 13أفريل عام 1598 من طرف ملك فرنسا هنري الرابع أوّل اعتراف رسمي بمبدأ التسامح مع الأقليات البروتستانتية الفرنسية (أو طائفة الهوغونوت) منحهم فيه حق ممارسة الشعائر الدينية وحرية المعتقد والمساواة مع الأغلبية الرومانية الكاثوليكية.

مغزى التسامح هو محاولة التقدم نحو الأمام وللأفضل مهما كانت الصعوبات لا بد من التكيف معها بل وتجاوزها لأن التسامح سبيل السلام والأمان وفي غيابه يغيب التقدم والابداع والتطور بكل معانيه.

¹ أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد 1، تر، خليل أحمد خليل، دارعويدات، بيروت، ط2، 2001، ص1460

² أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد 1، تر، خليل أحمد خليل، دارعويدات، بيروت، ط2، 2001، ص1460

³ جميل صليبا المعجم الفلسفي ج1 دا الكتاب اللبناني ، بيروت، 1982، ص 271

⁴ جميل صليبا المعجم الفلسفي ج1 دا الكتاب اللبناني ، بيروت، 1982، ص 272

⁵ الموسوعة الفلسفية العربية ص253

ثانيا: رؤية فلاسفة الأنوار للتسامح.

1. التسامح عند جون لوك: 1632/1704

يعتبر تصور جون لوك ورسالته في التسامح، إحدى اللبنة الأساسية في التأصيل لمفهوم حقوق الإنسان، بمعناها العالمي المعاصر رغم انتمائه لعصر الأنوار؛ إذ لا مجال للحديث عن حقوق الإنسانية جمعاء دون الحديث على الحق والحرية في الاعتقاد، وهذا ما شكل جوهر، وروح، رسالة التسامح التي ألفها جون لوك. "ففي عام 1689م أصدر جون لوك رسالة عن التسامح كتبها باللاتينية دفاعا عن التسامح الإنجليزي و أضاف ثلاث رسائل أخرى حول التسامح لكي يتم بحثه و يوضحه"⁶. راهن في رسالته الشهيرة على جملة من الحقوق، التي ينبغي ضمانها لأصحاب الديانات المختلفة، وعدم اعتبار الاختلاف عامل هدم لحرياتهم، ونهب لحقوقهم.

وليس لأي شخص مهما كان أو أي مؤسسة مهما كانت أن يلحقا ضررا بممتلكاتهم، بدعوى أنهم يؤمنون بدين مخالف.

يقول جون لوك: "إن التسامح بين أولئك الذين يعتقدون عقائد مختلفة في أمور الدين يتماشى مع مقتضيات العقل الإنساني الحق حتى إنه لأمر غريب عند الناس أن يكون المرء أعمى إلى الدرجة التي لا يرى فيها ضرورة

7

التسامح ومزاياه في ضوء ساطع كهذا "

يرفض جون لوك استخدام العنف والجبر من أجل فرض عقيدة دينية لأن المسيح لم يتسلح بالسيف أو بأي سلاح من العنف بل كان مسلحا بسلام العهد الجديد والأسوة الحسنة، فذلك كان منهجه في نظره، و عليه ليس من حق أي أحد أن يقتحم، باسم الدين، الحقوق المدنية والأمور الدنيوية " يبدو لي ان الدولة مجتمع من البشر يتشكل بهدف توفير الخيرات، المدنية والحفاظ عليها وتنميتها و أنا أعني بالخيرات المدنية الحياة و الصحة

8

وراحة الجسم بالإضافة إلى امتلاك الأشياء مثل الأرض والبيوت و المال والأثاث وما شابه ذلك" ،فمهمة الحكومة المدنية تختلف اختلافا جوهريا عن مهمة الدين في نظره، ذلك، أن الدولة ما هي إلا هيئة تكونت لغرض واحد هو انماء مصالح أفرادها المدنية أي الاشتغال بالمور الدنيوية، عن طريق التسامح فالتسامح هو المبدأ الذي يتيح للإيمان الصحيح أفضل فرصة لأن يسود "من واجب لحاكم المدني تطبيق القوانين، بلا استثناء لتوفير

⁶ الموسوعة الفلسفية العربية ص 253

⁷ جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة، مني أبو سنة، تقديم و مراجعة مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 1994، ص 23

⁸ جون لوك المصدر نفسه ص23

الضمانات التي تسمح لكل الناس على وجه العموم، ولكل فرد على وجه الخصوص الامتلاك العادل للأشياء

9

الدينيوية"

فرق لوك بين وظيفة الدولة ووظيفة الدين و أزم الدولة بضرورة السهر على حقوق المواطن المدنية وخدمة مصالحه الدينيوية دون التدخل في شؤون الدين التي تشغل بعقيدة الفرد وأموره الروحية الأخروية، وهو بهذا يكون من المؤسسين للعلمانية التي أنقذت المجتمع الأوروبي من تسلط الكنسي، وشكلت القاعدة الأساسية التي ارتكزت عليها الدولة الحديثة فيما بعد .

مفهوم التسامح عند "جون لوك" ارتبط بالحقوق والواجبات المدنية التي تساعد المواطن على العيش في سلام وتضمن كرامته كما تضمن له كل حقوقه وتحدد له كل واجباته تجاه بلده. إلا أن من يتصفح نصوص لوك يجده يستثني طائفة الكاثوليك والملاحدة والمسلمين من التسامح، وهو بهذا لا يعتبر من دعاة التسامح الشامل يقول جون لوك: " لا يمكن التسامح على الاطلاق مع الذين ينكرون وجود الله فالوعد والعهد والقسم من حيث هي روابط المجتمع البشري، ليس لها قيمة بالنسبة إلى الملحد فإنكار الله حتى لو كان بالفكر فقط يفك جميع الأشياء. هذا بالإضافة إلى ان أولئك الملحدون الذين يدمرون كل الأديان ليس من حقهم ان يستندوا إلى الدين لكي يتحدوا"¹⁰. التسامح عنده إذا ليس شاملا فهو يستثني بعض الفئات كما هو واضح في النص وهذا ما يجتسب على جون لوك.

"من السخرية ان يعلن الانسان انه مسلم فقط من حيث الدين ولكنه فيما عدا ذلك فإنه يعلن بانه مخلص لحاكم مسيحي في حين أنه يقر بأنه يطيع مفتي القسطنطينية طاعة عمياء، والذي يخضع بدوره خضوعا تاما للإمبراطور العثماني ويشكل الدين حسب هواه. و لكن هذا المسلم الذي يعيش وسط المسيحيين يرفض حكومتهم بشكل واضح اذا أقر بن شخصا واحدا هو رئيس كنيسته والحاكم الأعلى للدولة"¹¹. وقد استثنى لوك هذه الفئات من تسامحه لأنها في نظره تدين بالولاء لحاكم آخر، لا تسامح عند لوك مع الكاثوليك لأن، ولاؤه إنما هو لسلطة خارج الدولة التي يعيش في ظلها: " (فالكنيسة التي يخضع كل واحد فيها لأمر آخر ليس لها أن تحظى بتسامح الحاكم)، وكذلك لا تسامح مع (التركي المسلم الذي يعيش تحت حكم دولة مسيحية إذا كان ولاؤه إنما هو

⁹ جون لوك، المصدر نفسه، ص24

¹⁰ جون لوك المصدر نفسه، ص57

¹¹ جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة، منى أبو سنة، تقدم و مراجعة مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 1994، ص57

للمفتي الذي هو تابع للإمبراطور العثماني) لا تسامح إذًا مع الكاثوليكي ولا مع المسلم ليس لأحدهما على دين أو مذهب مخالف، بل بسبب ولائهما لسلطة أجنبية¹²

يمنع التسامح مع هذه الفئات لا لأنها مختلفة في العقيدة بل لأنها تدين بالولاء لسلطة أجنبية وهذا ما يرفضه جون لوك بشدة لأنه ربط التسامح بالحقوق المدنية التي تضمن للفرد العيش في سلام وأمن وطمأنينة وهو الأمر الذي انتقد فيه جون لوك كثيرًا لأن مفهومه للتسامح لم يكن شاملاً كما هو الأمر عند معاصره بايل مثلاً. من خلال ما تقدم يمكننا القول أن حقوق الفرد بكل أنواعها في نظر لوك، هي حقوق مقدسة لا ينبغي أن تطالها الأيدي من لدن أية سلطة مهما كانت طبيعتها.

فحتى لو كان الغرض من التشدد مع المختلف في الدين وعدم التسامح معه في نظره، ناتجاً عن رغبة في إنقاذه وهدايته إلى سواء السبيل، فليس من حق صاحب هذا التصور أن يفرض عقيدة أو ملة ما، بالقوة والغضب، دون رضی المعني بالأمر، فعدم اقتناع الفرد به، يعد سبباً كافياً لإزالة الشرعية عنه، في نظره لأن الإنسان لا يستطيع أن يجبر إنساناً آخر على التحلي بالإيمان قصراً ذلك أن الحقيقة في نظر لوك ستؤدي عملاً جيداً إذا ما تركت لتعدل نفسها فهي فينظره لا تدرّس من خلال القوانين كما أنها ليست بحاجة إلى القوة والعنف لتأمين دخولها إلى عقول الناس لأن سلطة الحكم تكمن داخل الفرد الحر.

إن التسامح الذي أسس له جون لوك في كتابه المهم -رسالة في التسامح- هو أقرب إلى مجال السياسة، وتنظيم شؤون الدولة، فمن خلاله وضع حدوداً لكل من الكنيسة والدولة. لأن وظائفهما مختلفة عن بعضها بعض كما سبق الذكر وبهذا نجد أيضاً قد وضع اللبنة الأولى في الفكر العلماني الذي كان عاملاً أساسياً في استقرار أوروبا وازدهارها. رغم كل الانتقادات التي وجهت لجون لوك والتي تجعل من تسامح لوك تسامحاً عنصرياً، إلا أن الأفكار التي جاء بها شكلت الأرضية الأساسية لبيان الاستقلال الأمريكي فيما بعد. بالإضافة إلى أن أفكاره كانت مصدر إلهام للكثير من الأفكار التحريرية في العالم الحديث والمعاصر.

2. التسامح عند بيير بايل: 1706 / 1647

كتب Pierre Bayle كتاباً لا تقل أهمية عن كتاب جون لوك في الدفاع عن التسامح الديني

نذكر بعض عناوينها "تعليقات فلسفية على من أجبرتموه على الدخول في حظيرتكم 1686م" أي أجبرهم على الدخول في الدين والمسيحي ويخص بالذكر المذهب الكاثوليكي .

وكتاب "ما تعنيه فرنسا الكاثوليكية المتعصبة في عهد لويس الكبير"، و له أيضاً كتاب "مرافعة في الدفاع عن حقوق الضمير التائه" و الذي ينتقد فيه رفض التعددية الدينية ويطالب بحرية المعتقد.

علي أواميل، ضمن كتاب جماعي، الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون، مركز دراسات الوحدة العربية ط 1

وكذلك كتابه الشهير " القاموس التاريخي والنقدي " والذي يرجع له الفضل الكبير في تنوير العقول المسيحية في ذلك الوقت وببير بل مفكر فرنسي حر لا يُقر بمقياس للحقيقة سوى العقل " يرى أن المعتقد الذي يبدو لنا مغلوطا يجب التسامح معه لأنه قد يكون حقا .ويرى أن، أكبر خطأ في أي دين هو ألا يكون متسامحا و من واجب الدولة أن تسمح بأي شيء إلا بعدم التسامح"¹³.

فلا وجود ليقين مطلق عنده لأن الشيء اليقيني الوحيد في نظره هو " لا شيء يقيني " و كل المحاولات العقلية للإنسان حبلى بالتناقض والسخافة. فالعقل في نظره لا يمكنه أن يملك الحقيقة المطلقة.

و وفقا لمنهج التحليل النقدي الذي عُرف به بايل فقد نفى شرعية أي طرف في امتلاك الحقيقة النهائية وبذلك يشجب وثوقية الفلاسفة كما يستهجن اعتقادية اللاهوتيين ، دعا ببير بايل إلى التسامح التام الشامل مع كل المذاهب المسيحية والأديان بما فيها اليهودية والإسلام وحتى الملاحدة والكاثوليك الذين استنهام (جون لوك) من التسامح.

فقد أوصى بضرورة التسامح مع كل الطوائف والديانات دون استثناء يقول ببير بيل "لا شيء أدعى إلى جعل العالم مسرحا داميا للاضطهاد والمذابح -من تقرير هذا المبدأ القائل بأن كل المعتقدين بحقيقة دينهم ، يحق لهم أن يبيدوا سائر الأديان .إن هذا يؤدي إلى إرجاع الجنس البشري إلى الحال نفسها التي يتحدث عنها رجال السياسة ،والتي كان فيها كل فرد سييدا وله الحق في كل شيء ، ما دامت لديه القوة للاستيلاء عليه. إن من الواضح أن الدين الحق ،أيا ما كان ، لا يحق له أن يدعى أي امتياز يُحول له العنف مع الديانات الأخرى ،ولا يحق له أن يدعى أن الأفعال التي يرتكبها هو بريئة، لكنها تكون جرائم إذا ارتكبها الآخرون"¹⁴

فلا يحق لأي دين مهما كان ان يدعي بأنه الأفضل ويسول لنفسه الكيل بمكيالين فينظر لنفسه بعين البراءة والنزاهة ويُجرم الآخر المختلف عنا لا لسبب فقط لأنه يختلف عنه في العقيدة ، لذلك طالب بحرية المعتقد وطالب بضرورة تعايش الأديان مهما كان نوعها بما فيها الديانات الوضعية بل التعايش حتى مع الملاحدة الذين استنهام لوك من تسامحه لأن الملحد قد يكون مواطنا صالحا في دولة القانون في نظر بايل. فقد رفض فكرة التحول من مذهب لآخر عن طريق الغضب والقهر، رفض سياسة لويس الرابع عشر في إرغام البروستانتين على اعتناق الكاثوليكية بالغضب و القوة والتعذيب. أكد بيل على أن مجتمعا من الملحدين قد يكون أفضل خُلقا من مجتمع من المسيحيين المؤمنين.

فأخلاق الملحد قد تكون أفضل من أخلاق المؤمن بل لا يستبعد أن يكون المؤمن مجرما. وقد كتب بايلعن "الخرافات جنسية لمؤمنين ومتعصبين ومصلحين وباباوات، وهنا تجدر الإشارة إلى أن بايل وضع مفارقة بين

¹³ الموسوعة الفلسفية العربية ص 254

¹⁴ عبد الرحمن بدوي :موسوعة الفلسفة ، منشورات ذوي القربى، الجزء الأول ص 59 و60

الاخلاق والدين مؤكداً أن أكبر الآثمين في تاريخ البشرية يؤمنون بوجود إله وحتى إبليس في نظره يؤمن بوجود الله ومنه يخلص إلى أن خبث المجرم البشري يشبه خبث إبليس لأن كلاهما يؤمن بوجود الله، عكس جون لوك. ما نخلص إليه هو أنه كل من جون لوك أو بيير بايل قد مهدا الأرضية لحرية المعتقد الديني ونبذوا التعصب والتطرف الديني رغم اختلافهما في بعض القضايا، فكل فرد حر في اعتناق الدين الذي يشاء وكذلك هو حر في عدم اعتناق أي دين ومع ذلك يظل مواطناً له كل الحقوق وملزم بكل الواجبات لأن مسألة الإيمان تبقى بين العبد وربه.

3. التسامح عند فولتير 1694/1778

فولتير هو من أمسك مشعل التسامح ونبذ التعصب بعد بايل ولوك، ويمكننا ربط مفهوم التسامح لديه مع حادثة "عائلة كالاس" التي نصّب فولتير نفسه محامياً للدفاع عنها، ومفاد هذه الحادثة أن جون كالاس -وهو راعي كنيسة بروتستانتية - أتهم ظلماً بقتل ولده الذي تحول من البروتستانتية إلى الكاثوليكية و قد تجند فولتير لهذه القضية إلى أن صدر الحكم بتبرئة العائلة وقد استقبل حكم البراءة استقبالا حاشداً¹⁵ -علماً أن الشاب مات منتحراً- مفهوم التسامح عنده لم يبقى حبيس التصورات الذهنية، بل تجسد على أرض الواقع من خلال نتيجة المحاكمة التي استقبلتها حشود من الناس. فمفهوم التسامح عنده يقترب من المفهوم المعاصر لنا وقد ارتبط بمفهوم الرأي العام بلغة عصرنا، نبذ فولتير كل أشكال العنف والتعصب والانغلاق، لأن الإنسانية لا تجني منه إلا الدمار "العالم بأسره يقطع لنا الدليل على أنه لا جدوى من ممارسة التعصب ولا حتى من الدعوة إليه"¹⁶. يؤكد فولتير أن "العنف المسعور الذي يدفع إليه العقل اللاهوتي المغلق، والغلو في الدين المسيحي المساء فهمه، قد تسببا في سفك الدماء وفي إنزال الكوارث بألمانيا وبنكلترا بل حتى بهولندا، بضرر لا يقل عما حدث في فرنسا. ولكن على عكس واقع الحال عما في فرنسا، فإن تباين الأديان ما عاد اليوم يتأدى إلى حدوث اضطرابات وقلقل في تلك الأقطار فاليهودي والكاثوليكي، والأورثودوكسي، واللوثري والكالفاني وداع تجديد المعمودية والسوسيني... وسواهم غدو يعيشون بتآخ في تلك الأقطار ويساهمون على قدم من المساواة في خدمة مجتمعهم"¹⁷ وقد أشاد فولتير بالتسامح الذي عرفه المجتمع الياباني الذي تعايشت فيه الكثير من الديانات. "لقد كان اليابانيون أكثر الناس تسامحاً، فقد تعايشت اثنتا عشرة ديانة في امبراطوريتهم"¹⁸

أكد فولتير ان الإقرار بالتعددية يخفف من حدة وخطورة الطائفية وهذا ما تحتاجه الدول العربية اليوم "بقدر ما يزداد عدد الطوائف والنحل تخف خطورة كل واحدة منها على حدة، فالتعدد يضعفها ويقلل من شأنها، ولا سيما

¹⁵ علي أومليل، كتاب جماعي الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون، مركز دراسات الوحدة العربية ط 1، 2013، بيروت، ص 104

¹⁶ فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة هنري تيبودوي، ط الأولى، 2009، دار بتر للنشر والتوزيع، دمشق، ص 40

¹⁷ فولتير، رسالة في التسامح، ص 31

¹⁸ فولتير المصدر نفسه ص 37

عندما تخضع جميعها دونما تمييز. لقوانين عادلة تردعها، قوانين تحظر التجمعات الصاخبة، وتنتهي عن الشتائم والفتنة وتلقى فاعلة بكل قوة بحكم سريان مفعولها على الجميع"¹⁹. إن التسامح في خلاصة القول، لم يتسبب أبداً في إثارة الفتن الحروب الأهلية في "حين ان عدم التسامح قد عمم المذابح على وجه الأرض فلنحكم الآن بين تينيكالغريمتن بين الأم التي تود أن يذبح ابنها والأم التي تتخلى عنه كي يبقى على قيد الحياة"²⁰. يرى فولتير أن حرية المعتقد هي السبيل إلى تقبل التسامح وهو بهذا يتقاطع فيه مع سابقه " إن ألمانيا ما كانت لتكون اليوم إلا صحراء بلقعا تغطها عظام الانجيليين، والبروتستانتين، والكاثوليكين وأتباع تجديد المعمودية، الذين ذبحوا بعضهم بعضا تباعا، لو لم تأت معاهدة وستفاليا في آخر الأمر لتؤكد حرية المعتقد"²¹ فقد نبذ التعصب الديني ونبذ العنف الأصولي الكاثوليكي بصفة خاصة، ذلك ان حرية المعتقد تضمن العيش في سلام وتضمن حقوق الافراد على اختلاف انتماءاتهم الايديولوجية أو العقديّة.

من خلال ما تقدم يمكننا القول أن فكرة التسامح "لم تنشأ، في الوعي الإنساني الحديث، بالتلقاء وأحكام الولادة الطبيعية، ولاهي تولدت من نزعة انسانية تدفقت روحها في التاريخ و مجتمعاته، وإنما هي أتت ثمرة مخاضات و صراعات وحروب دموية كانت أوروبا مسرحاً لها، فيما بات يعرف في كتب التاريخ باسم الحروب الدينية"²² فقد ظهر مفهوم التسامح في الدول الغربية نتيجة الحاجة الملحة لاستقرار و أمن المجتمعات، كان التسامح في الفكر الغربي ديني المولد و راتب معناه، بتحمّل الآخر و نبذ العنف و التعصب، ثم أصبح بعد ذلك، يعني التعايش مع الآخر المختلف في الدين والمذهب وقد تحول في الوقت الحاضر إلى مبدأ من مبادئ حقوق الانسان وهذا ما أقره ميثاق الأمم المتحدة كما سيتبين.

لقد بدت الفكرة لحظتها، وكأنها اعتراف بأمر واقع مقضي "بعد أن عزّت إمكانية حسم الحرب بإلغاء أحد أطرافها وما كان من مناص حينها سوى الاعتراف بهذا الواقع التعددي الجديد، في الخريطة الدينية وشرعته باسم مبدأ جديد وكان هذا المبدأ هو التسامح"²³

ثالثاً: التسامح كمبدأ من مبادئ حقوق الانسان (في ميثاق الأمم المتحدة)

¹⁹ فولتير المصدر نفسه ص 44

²⁰ فولتير، المصدر نفسه ص 41

²¹ فولتير المصدر نفسه ص 43

عبد الاله بلقزيز، مقدمة كتاب جماعي،، الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون، مركز دراسات الوحدة العربية ط 1

²²، 2013، بيروت، ص 11

عبد الاله بلقزيز، مقدمة كتاب جماعي،، الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون، مركز دراسات الوحدة العربية ط 1

²³، 2013، بيروت، ص 11

" في نهاية عام 1994 وجه المدير العام لليونيسكو نداء عالمي من أجل التسامح، أذان فيه التطهير العرقي، والإرهاب، والتطرف الثقافي والديني، الاستبعاد الجماعي والتمييز العنصري، بينما أشاد بالحوار واللاعنف باعتبارهما أفضل الوسائل لحل النزاعات.

وفقا لقرار الجمعية العامة 213/49، تقدم هذه الوثيقة إلى الجمعية العامة نص الإعلان وخطة عمل متابعة سنة الأمم المتحدة للتسامح (1995).

جاء في مطلع نص ميثاق الأمم المتحدة " نحن شعوب الأمم المتحدة، و قد آلينا على أنفسنا أن ننقذ الأجيال المقبلة من ويلات الحرب ...و أن نؤكد من جديد إيماننا بالحقوق الأساسية للإنسان و بكرامة الفرد وقدره...وفي سبيل هذه الغايات اعترزنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح و أن نعيش معا في سلام وحسن حوار" كما أكد الإعلان العالمي لحقوق الانسان في المادة 26 أن التربية" يجب أن تهدف إلى تنمية التفاهم والتسامح والصدقة بين جميع الشعوب و الجماعات العنصرية أو الدينية"

كما يشدد ميثاق الأمم المتحدة على ضرورة احترام حقوق الانسان بغض النظر عن العرق أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الأصل القومي أو الدين أو أي تمييز بسبب عجز أو عوق. و يطالب بضرورة مكافحة اللا تسامح. لذلك عزموا على اتخاذ التدابير اللازمة لتعزيز التسامح في المجتمعات لأنه مبدأ ضروري للسلام و للتقدم الاقتصادي والاجتماعي لكل الشعوب.

معنى التسامح في ميثاق الأمم المتحدة :

حددت منظمة اليونيسكو مفهوم التسامح بشكل دقيق شمل جميع المجالات والأبعاد وقد استوفتنا جملة من النصوص التي يمكننا أن نستجلي من خلالها مفهوم التسامح في عصرنا الحالي بدقة فائقة.

"إن التسامح يعني الاحترام والقبول والتقدير للتنوع الثري لثقافات عالمنا ولأشكال التعبير ويتعزز هذا التسامح بالمعرفة والانفتاح والاتصال وحرية الفكر والضمير والمعتقد إنه الوثام في سياق الاختلاف .وهو ليس واجبا أخلاقيا فحسب , وإنما هو واجب سياسي وقانوني أيضا ، و التسامح هو الفضيلة التي تيسر قيام السلام يسهم في إحلال ثقافة السلام محل ثقافة الحرب "24 . نلمس تحول مفهوم التسامح من معناه الأخلاقي كما كان عند فلاسفة الأنوار إلى معناه السياسي "لكن ما إن استطاع هذا العقل أن ينتصر ويفرض نفسه سياسيا ثم بشكل أخص قانونيا وتشريعيا حتى ضمن لكل فرد حرية التفكير التعبير والنشر هكذا انكشف الطابع السلبي والضيق جدا

²⁴ ميثاق الأمم المتحدة، مسائل حقوق الانسان، 1996/201/51/A ص 7

للتسامح الديني. هذا ما حدث في أوروبا بشكل تدريجي منذ عصر التنوير ولكن عالم الإسلام لا يزال يُعاني من انعدام التسامح بالمعنى الحديث للكلمة"²⁵

وهو المعنى الذي نأمل أن يتحقق داخل المجتمعات العربية، "إن التسامح لا يعني المساومة أو التنازل أو التساهل، بل التسامح هو قبل كل شيء، اتخاذ موقف إيجابي فيه إقرار بحق الآخرين في التمتع بحقوق الإنسان وحياته الأساسية المعترف بها عالمياً.... والتسامح ممارسة ينبغي أن يأخذ بها الأفراد والجماعات والدول"²⁶

التسامح مسؤولية تشكل عماد حقوق الإنسان والتعددية (بما في ذلك التعددية الثقافية) والديمقراطية وحكم القانون، وهو ينطوي على رفض الدوغماتية والاستبدادية و يثبت المعايير التي تنص عليها الصكوك الدولية الخاصة بحقوق الإنسان"²⁷

فالديمقراطية هي سبيل التعايش السلمي كونها تراعي الواقع التعددي وتمتص كل الاختلافات"... وحول الديمقراطية ينبغي أن يتكون وفاق عام بين المثقفين، ضداً على أفكار الاستبداد، وعقائد الاستبداد ونظم الاستبداد مهما كان الجلد الذي تتلبس به هذه الأفكار"²⁸. إن الديمقراطية هي "خير نظام لتدبير التعدد والحوار والتنافس السلمي والتعايش"²⁹

و عليه فإن ممارسة التسامح في اعتقادنا، لا تعني تقبُّل الظلم و التهاون، بل تعني أن المرء حر في التمسك بمعتقده والآخرين أيضاً أحرار في ذلك لأن التسامح يُقر "بأن البشر المختلفين بطبعهم في مظهرهم وأوضاعهم و لغاتهم وسلوكهم وقيمهم لهم الحق في العيش بسلام وأن يطابق مظهرهم مخبرهم وهي تعني أن آراء الفرد لا ينبغي أن تفرض على آراء الغير"³⁰

التسامح بمعناه المعاصر يختلف عن معناه في بداية ظهوره فالتسامح اليوم، هو اعتراف بالحرية العقديّة وبحرية ممارسة الطقوس والشعائر الدينية، هو احترام الموقف المخالف و اعتراف متبادل بالحق في الاختلاف وتعايش الآراء والمعتقدات الدينية السماوية منها أو الوضعية هو التعايش السلمي و العيش المشترك.

²⁵ محمد أركون، المصدر نفسه، ص 244

²⁶ المصدر نفسه ص 7

²⁷ محمد أركون، قضايا في نقد العقل العربي، ترجمة هاشم صالح، دار الطليحة بيروت، ط 3، 2004

²⁸ علي أومليل، السلطة السياسية والسلطة الثقافية، ص 25 ص 26

²⁹ علي أومليل: الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي، ص 125.

³⁰ ميثاق الأمم المتحدة، مسائل حقوق الإنسان A/ 51/ 201 /1996 ص 7

الأمم المتحدة ربطت انتشار قيم التسامح بالدول والمؤسسات السياسية كونها الهيئات المسؤولة عن ضمان العدل وتحقيق تكافؤ الفرص للجميع "إن التسامح على مستوى الدولة يقتضي ضمان العدل وعدم التحيز في التشريعات وفي إنفاذ القوانين و الإجراءات القضائية والإدارية. وهو يقتضي إتاحة الفرص الاقتصادية والاجتماعية دون أي تمييز" ³¹

ولتحقيق الوئام على المستوى الدولي لابد "أن يلقي التعدد الثقافي الذي يميز الأسرة البشرية قبولا واحتراما من جانب الأفراد والجماعات والأمم. فبدون التسامح لا يمكن أن يكون هناك سلام وبدون السلام لا يمكن أن تكون هناك تنمية أو ديمقراطية" ³² لابد من الإقرار بالتعدد الثقافي من ثمة التعايش فيما بينها لأن لجميع الأفراد والجماعات الحق في أن يكونوا مختلفين بعضهم عن بعض. أما على مستوى البعد الاجتماعي للتسامح فإنه اليوم أمر جوهري في العالم الحديث أكثر منه في أي وقت مضى.

"فهذا العصر يتميز بعمولة الاقتصاد وبالسريعة المتزايدة في الحركة والتنقل والاتصال، والتكامل والتكافل، وحركات الهجرة وانتقال السكان على نطاق واسع والتوسع الحضري، وتغير الأنماط الاجتماعية ولما كان التنوع ماثلا في كل بقعة من بقاع العالم. فإن تصاعد حدة عدم التسامح والنزاع بات خطرا يهدد ضمنا كل منطقة ولا يقتصر هذا الخطر على بلد بعينه بل يشمل العالم بأسره" ³³

يتعزز التسامح عن طريق التفتح على الآخر والتضامن معه والاصغاء لبعضنا البعض والتحاور وتراهن الامم المتحدة على دور المدارس التربوي والتعليمي في التأصيل لمبدأ التسامح وكذا الجامعات و مواقع العمل، بالإضافة لوسائل التواصل الاجتماعي، ووسائل الاعلام والاتصال والتي يمكنها جميعا المشاركة في نشر فكرة التسامح ونبذ التعصب و اللآ تسامح والعنف والتطرف.

³¹ المصدر نفسه، ص 7

³² المصدر نفسه، ص 8

³³ المصدر نفسه، صص 9، 8،

خاتمة البحث:

من خلال ما تقدم نستخلص أهم النتائج التي توصلنا إليها من بحثنا والتي نحاول من خلالها الاجابة عن المشكلة المطروحة في المقدمة.

عرف التسامح معاني مختلفة واستعمالات متعددة منذ ميلاده، فقد أجمعت القواميس والموسوعات على أن مصطلح التسامح وليد الحروب الدينية التي عرفتها أوروبا في عصر تخلفها وقد كان يعني في بداية ظهوره تقبّل وتحمّل الآخر المختلف في المذهب.

مع فلاسفة الأنوار استعمله جون لوك استعمال سياسي حيث رفض الحق الالهي للملوك، وفرق بين السلطة السياسية والدينية من خلال مبدأ التسامح. مؤكداً على حرية الفعل و حرية العقل وحرية الضمير مطالباً بضرورة التسامح مع مختلف الديانات والفئات لكنه استثنى من تسامحه الملاحدة والمسلمين لأن ولائهم لحاكم آخر غير الحاكم المسيحي وبهذا انتقده البعض ونظر لتسامحه على أنه غير شامل كونه يقصي بعض الفئات.

أما التسامح عند بيار بايل فكان يعني نبد التعصب والتطرف، وعلى عكس جون لوك فقد شمل التسامح عنده جميع العقائد و المذاهب والفئات دون استثناء، شرطه الوحيد في ذلك هو ألا يُخل صاحب معتقد مخالف النظام العام ومعيار القياس هو (نور الضمير) على حد تعبيرة أو ما يعرف بحرية ضمير الفرد.

بينما التسامح عند فولتير تجاوز مفهومه مجرد فكرة في أذهان أصحابه إلى تجسيده على أرض الواقع أين أصبح مرتبطاً بالرأي العام فقد حدث تغير في العقلية العامة في عصره وظهرت قوة الرأي العام كسند أساسي له.

أقر فولتير أن التعدد والتعايش يخفف من الطائفية بل ويقضي عليها.

أكثر التعاريف شمولاً للتسامح هو تعريف منظمة اليونيسكو، الذي تضمنه ميثاق الأمم المتحدة أين ارتدى التسامح ثوبا سياسيا محضا و ارتبط بالديمقراطية وحقوق الانسان والحرية فقد نبد ميثاق الامم المتحدة التعصب وحاول إقرار التسامح والتعدد وفرض التعايش ونشر ثقافة العيش المشترك والتعايش السلمي بين مختلف الشعوب مهما اختلفت الألوان والأجناس واللغات والثقافات.

لقد أرسى مفهوم التسامح في الفكر الغربي قوانين أكثر انسانية و فرضت على الدول انماطاً جديدة من التفكير وإعمال العقل لاستنباط مخارج تجنب البشرية العنف والتعصب وكان ذلك بفضل جهود فلاسفة الانوار وعلى رأسهم جون لوك، بييربايل، جون جاك روسو، وفولتير..... الخ بالاضافة للمجهودات التي تبذلها المنظمات الدولية في سبيل التخفيف من مُعاناة الشعوب المستضعفة.

وما احوجنا نحن أبناء الأمة العربية للتسامح بمعناه الايجابي الفعّال للخروج من مأزق الطائفية والتعصب الذي مرّق صفوفنا ردحا من الزمن ولا نزال نتخبط في تبعات هذا التمزق والتناحر وخير مثال على ذلك ما تشهده الساحة السياسية العربية، السعودية واليمن، تشرّد الشعب السوري، و قبله تدمير الشعب العراقي دون أن ننسى ثورات الربيع العربي وسيكون موضوع بحثنا المقبل بحول الله، حاجة الدول العربية للتسامح.

أولاً: قائمة المصادر و المراجع

1. جون لوك، رسالة في التسامح، ترجمة، منى أبو سنة، تقديم و مراجعة مراد وهبة، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، 1994
2. فولتير، رسالة في التسامح، ترجمة هنرييتعبودي، ط الأولى، 2009، دار بترا للنشر والتوزيع، دمشق
3. علي أومليل، السلطة السياسية والسلطة الثقافية، مركز الدراسات الوحدة العربية، ط2، 1998، بيروت
4. علي أومليل: الإسلام والحداثة والاجتماع السياسي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1
5. علي أومليل و آخرون، كتاب جماعي الطائفية والتسامح والعدالة الانتقالية من الفتنة إلى دولة القانون، مركز دراسات الوحدة العربية ط 1، 2013، بيروت
6. محمد أركون، قضايا في نقد العقل العربي، ترجمة هاشم صالح، دار الطليحة بيروت، ط3، 2004
7. ميثاق الأمم المتحدة، مسائل حقوق الانسان 1996 / 201 / A/51
8. أندري لالاند: موسوعة لالاند الفلسفية، المجلد1، تر، خليل أحمد خليل، دارعويدات، بيروت، ط2، 2001
9. عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، منشورات ذوي القرني، الجزء الأول
10. الموسوعة الفلسفية العربية، المجلد الثاني، ط1، 1988
11. جميل صليبا المعجم الفلسفي ج1 دا الكتاب اللبناني، بيروت، 1982